ملك الانكليز وعمل الملوك

لقد كان اجتماع الناس قبائل وطوائف وممالك من القضايا التي ينظرُ اليها المفكر فلا يجد لها قانوناً تجري عليهِ كما كان ينظر الى انواع النبات والحيوان ويرى ما بينها من المشابهات والمخالفات فلا يستطيع ردها الى عللها الطبيعية الى ان جاء داروين بمذهب النشوء وتعاليلهِ كالميل الى التباين ووراثة الصفات والانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح فثبت لاهل العلم ان هذا المذهب يمكن تطبيقهُ على كل الموجودات الحية وافعالها . واخذ الباحثون في تاريخ البشر يبحثون حوادث الاجتماع الانساني حسب مذهب النشوء لكي تجعل علماً باصول يعلل بها كل ما حدث في تاريخ الاجتماع وما ينتظر حدوثهُ . ومما يعلل بها قيام الملوك واتساع سلطتهم ثم تقلصها رويداً رويداً الى ان تصير اسمية وما ينسب اليها من المنافع والمضار في كل اطوارها

واهم شيء يبنى عليهِ هذا العلم تمحيص الحوادث التاريخية حتى تكون صحيحة خالية من كل شائبة والاَّ فالبناء على اسس غير صحيحة فاسد سريع التقوض . ولذلك تعنى الامم الراقية الآن بتمحيص الاخبار وتحقيق الاقوال لئلاَّ تكون مضللة لعلماء التاريخ وعلماء الاجتماع . ومن هذا القبيل ما فعلهُ بعض الانكليز حديثاً في وضعهِ ترجمة صحيحة لملكهم السابق الملك ادورد السابع لمخالفات كثيرة لكثير مما كان يروى عنهُ ونافضة لكثير مما كان ينسب اليهِ

منشأ هذه الترجمة السر صدني لي مؤلف قاموس السير الوطني ويظهر منها انهُ عرف الملك ادورد السابع معرفة شخصية وانهُ مطلع على اسرار السياسة وواقف على المستندات الرسمية التي قلما يصل اليها غير الذين في يدهم الحل والربط

ومما جاء في هذه الترجمة ان الاسلوب الذي استُعمل في تعليم الملك ادورد في صباهُ جعلهُ يكره التعلُّم لانهُ فصلهُ عن الاولاد الذين من سنهِ فان اباهُ كان يعتقد ان اولاد الملوك يجب ان لا يخالطوا رعاياهم ولا يتفوا معهم الاَّ في المواقف الرسمية . ولم يكن الاَّ قليل حتى صار يسأم الكتب ولا يرغب في الدرس فلم يستفد من التعليم الاَّ تكلُّم الفرنسوية والالمانية . واللوم الاكبر على الاسلوب الذي جرى معلموهُ عليهِ فلم يعطَ من كتب التاريخ الاَّ ما هو مقصور على الحوادث التاريخية المجرَّدة ولم يسمح لهُ ان يقرأ قصة من القصص ولذلك لم يعتد المطالعة فاقتصر في شبابهِ وكهولتهِ على قراءة الجرائد ولكنهُ كان شديد الانتباه والملاحظة فوعت ذاكرتهُ اموراً كثيرة مما رآهُ وسمعهُ

وبدا منهُ في صباهُ ميل شديد الى اتقان ملابسهِ فقطعت لهُ امهُ مالاً مخصوصاً يشتري بهِ البرانيط وربطات الرقبة وهو في الخامسة عشرة من عمرهِ على شرط ان يقدم لها حساباً مفصلاً عن كل ما اشتراهُ . ثم سمحت لهُ ان يختار ملابسهُ ضمن قواعد وضعتها لهُ فانصرف همهُ الى ذلك وبقي الى آخر ايامهِ يهتم شديد الاهتمام بملابسهِ والملابس الرسمية التي يرتديها رجالهُ

وتوفي ابوهُ وعمرهُ عشرون سنة ولكن امهُ بقيت تحسبهُ ولداً قاصراً وابقتهُ تحت اشد المراقبة ولم تسمح لهُ ان ينظر في امر من امور المملكة ولكنها سمحت لهُ ان ينوب عنها في الحفلات الرسمية التي كانت تكره حضورها . وقد كره ان يحرم من الاشتغال بسياسة البلاد ولكنهُ انقاد لارادة امهِ لانهُ كان يحب السلامة ويكره الخصام فحرم فوائد الاشتغال بسياسة بلادهِ اربعين سنة اكراماً لها . ولم يكن ذلك على رغبة وزرائها ففي سنة ١٨٦٥ اظهر لها وزيرها لورد رسل ان حرمان ولي عهدها من رؤية ما يراهُ كل وزير ليس في مصلحة بلادها فسمحت لهُ ان يطلعهُ على بعض المكاتبات الاجنبية السرية ولكنها امرتهُ ان لا يريهُ منها الاَّ ما لا ضرر من افشائهِ كأنها كانت تعتقد انهُ لا يكتم سرًّا

وسنة ١٨٧٢ جرى غلادستون مجرى لورد رسل وابان للملكة ان لولي عهدها مقاماً لا يمكن انكارهُ ويجب ان يعين لهُ عمل يعملهُ لكنها خالفتهُ في ذلك ولم تجبهُ الى شيء مما طلبهُ . ولم يفلح غلادستون في جعلها تقبل طلبهُ الاَّ بعد عشرين سنة حينما صار عمر ولي عهدها خمسين سنة فانها سمحت لهُ حينئذٍ على غير رغبتها ان يطَّلع على بعض اشغال الحكومة واعمال مجلس الوزراء ولكنها اشترطت انها هي تختار ما يجوز اطلاعهُ عليهِ وبعد جدال طويل سلَّمت بما طلبهُ منها غلادستون . وصار اليرنس بيدي آرائهُ في ما يُطَّلع عليهِ من اوراق الحكومة لكن اكثر اهتمامهِ كان مصروفاً الى الاشخاص وما يراد منهم اياهُ من الرتب ويشير باعطاء الرتب لاناس من اصدقائهِ ويجتنب النظر في المسائل السياسية الدقيقة . ولم يسمح لهُ بالاطلاع على كل المخابرات السياسية الخارجية الاَّ سنة ١٨٩٥ في وزارة لورد سلسبري

والرأي الشائع انهُ كان لملك ادورد شأن كبير في السياسة وانهُ لم ينتقل من مكان الى آخر في اوربا الاَّ لغرض سياسي تقابل ملك ايطاليا لكي يفصل ايطاليا عن المحالفة الثلاثية وعمل اعمالاً اخرى من هذا القبيل لكي يعزل المانيا عن غيرها من الدول ويضيق خناقها حتى زعم الالمان انهُ مثل بسمارك من هذا القبيل . والحقيقة انهُ لم يفعل شيئاً من ذلك لانهُ كان يعلم ان حكومة بلادهِ دستورية وشؤونها السياسية في يد وزرائها لا في يدهِ . ويحتمل انهُ كان يعرب عن آرائهِ لبعض خواصهِ في احاديثهِ معهم ولكن لم يكن لشيء من ذلك صفة رسمية يبنى

عليها حكم . وكان رجال السياسة الاجانب يعلمون ان القول لوزرائهِ لا لهُ وانهُ انما يجول في اوربا لقصد النزهة لا غير وان احاديثهُ معهم لا شأن للسياسة فيها ولا يبنى عليها حكم سياسي

هذا من حيث السياسة الخارجية اما السياسة الداخلية اي سياسة بلادهِ بالذات في امورها الداخلية فلم يكن يشتغل بها اكثر مما كان يشتغل بالسياسة الخارجية بل كان يكتفي بالنظر والمراقبة لا كرهاً لبلادهِ بل علماً منهُ ان حكومتها دستورية وهي في يد وزرائها ونوابها ومع ذلك لم يكن يحجم عن ابداء آرائهِ الخصوصية اذا دعت الحال الى ذلك فلما نادى حزب تشمبرلين بوضع المكوس على الواردات قال لهم ان الامة لا توافقهم على وضع المكوس على طعامها . ولما علا النداء ضد استخدام العمال الصينيين في جنوب افريقية جاهر بانهُ غير موافق لهُ وجاهر اخيراً انهُ غير موافق لاعطاء النساء حق الانتخاب

ولما سقطت وزارة المحافظين وجاءت وزارة الاحرار سنة ١٩٠٥ قال ان ذلك عدل . وكانت معرفتهُ بالسر كل بنرمن قليلة جداً ولم يكن ميالاً اليهِ . ودعي مرةً الى وليمة كان كل بنرمن مدعواً اليها فتردَّد في اول الامر عن قبول الدعوة كرهاً لهُ ولكنهُ لجم طبعهُ وقبلها فرأى من حديثهِ معهُ انهُ اخلص المخلص لبلادهِ فسرهُ بيجداً لاخلاصهِ وفكاهة حديثهِ

ولما تولَّى المستر اسكوث رئاسة الوزارة ودخلها المستر لويد جورج وزيراً للمالية ووضع الميزانية لسنة ١٩٠٩ وزاد الضرائب فيها على الاراضي تألم الملك من ذلك كما تألم من محاولة التغيير في نظام مجلس الاعيان سواء كان على ما نواهُ الاحرار او على ما نواهُ المحافظون وروعيت مشيئتهُ فبقي المجلس على حالهِ . ولكن لما اراد الاعيان ان يرفضوا الميزانية في خريف سنة ١٩٠٩ رأى انهم مخطئون مع انهُ كان يكره الاقرار عليها فعزم ان يستعمل سلطتهُ الشخصية في منع ما عدَّهُ شراً مستطيراً فقابل زعيمي المحافظين لورد لنسدون والمستر بلفور وحادثهما في الامر وابان لهما رغبتهُ ثم قابل المستر اسكوث رئيس النظار واطلعهُ على ما دار بينهُ وبين زعيمي المحافظين . ولما اصرَّ المحافظون على خطتهم ولم يقبلوا نصيحةَ عددهم الاحرار بترقية كثيرين منهم الى مصاف الاعيان حتى تصير لهم الاكثرية في مجلسهم وهذا ايضاً لم يكن من الامور التي يرغب فيها فالمهُ الامر ان على حدٍّ سوى ولكنهُ لم يقنط من الوصول الى التوفيق بين الحزبين من غير ان يلجأ الى العنف وكان اذا رأى هذه المشاكل في بلادهِ يلجأ الى تفريج كربتهِ بالسياحة والنزهة

ولخص المؤلف سيرة الملك ادورد واوصافهُ بقولهِ انهُ لم يكن من قهارمة رجال السياسة الذين يبقى لهم شأن عظيم في التاريخ ولا ابقت لهُ القيود الدستورية ولا اذواقهُ ولا تربيتهُ

فُرَصاً للتأثير في الامور السياسية ولا كان معطًى موهبة التوليد والابتكار في السياسة وغاية ما يقال عنهُ انهُ كان يتذرع بالنظام الدستوري و يبعد بهِ عن ميدان السياسة حيث يتناظر الخصوم وكان يفضل ان يبقى القديم على قدمهِ في الامور الخطيرة واذا رأى نظرةً في سياسة الاحزاب لم يقلق كثيراً لعلمهِ ان الشتاء يذهب جفاء ولا يبقى الاَّ ما ينفع الناس

ولم يكن من كبار العقول المفكرين واظهر احياناً انهُ لا يريد ان يشغل قوادُ العقلية بالامور الدقيقة . ولم يكن من مطالعي الكتب لكنهُ كان يحب الاطلاع على الامور الجديدة فخزن في ذهنهِ معارف كثيرة متنوعة . وكان سريع الخاطر اذا حادثتهُ في موضوع المَّ بهِ حالاً وفهم مرادك . ولم يكن ماهراً في محادثة الناس ولكنهُ كان حليماً وديعاً فيؤسرهم بلطفهِ

يظهر من هذا البيان الوجيز ان ملك الانكليز السابق المعدود من اعظم ملوك الارض واكثرهم خدمةً لبلادهِ كان رجلاً عاديًا ولم يفعل شيئًا لبلادهِ يستحق ان يسمو بهِ فوق غيرهِ من رجالها المعدودين فلم يكن في طبقة كبدن وغلادستون من رجال السياسة ولا في طبقة نلسن وولنتن من رجال الحرب ولا في طبقة نيوتن وكلفن من رجال العلم ولا في طبقة هملتن وسبنسر من رجال الفلسفة بل لم يفق الدرجة الوسطى من الناس في امر من الامور والمرجح انهُ كان من الطبقة الاولى بين الملوك المعاصرين فعلى مَّ هذا الاحتفال الكبير بالملوك وهذه هي منزلتهم وعلى مَّ ينفقون الرواتب الطائلة من اموال الامة

والجواب ان كل تغيير في نظام الاجتماع لا يحسن حدوثهُ الاَّ حينما تتوفَّر اسبابهُ حتى يأتي طبيعيًا من نفسهِ والاَّ نَجَ عنهُ ضرر يزيد على ما ينتظر منهُ من النفع او كان ضرراً محضاً حتى لقد يحدث الضرر الكبير من ترك ما لا شبهة في ضررهِ ولكن العادة خففت تأثيرهُ . ومهما كان شذل الملوك قليلاً فانهم اذا لم يتعمدوا الضرر امكنهم ان ينفعوا نفعاً كبيراً ولو بوجودهم الرسمي . واما الرواتب التي يتقاضونها فليست شيئًا يذكر في جنب ما تنفقهُ الامَّة على كثير مما لا فائدة لها منهُ او منهُ ضرر اكيد . ما هي خمس مئة الف الجنيه التي تعطيها الامَّة الانكليزية لملكها في جنب ما تنفقهُ على الشاي او على التبغ او على المسكرات فان دخلها السنوي يبلغ الفي مليون جنيه فاذا اعطت ملكها نصف مليون جنيه فكأنها اعطتهُ جزءًا من اربعة آلاف جزء من دخلها السنوي فهي بمثابة رجل دخلهُ السنوي الف جنيه ينفق منهُ ٢٥ غرشًا في السنة على ما يرفع شأنهُ او يحيي عواطفهُ او يساعدهُ على حفظ نظام بيتهِ . فمن منَّا لا ينفق اضعاف اضعاف ذلك على ما ليس لهُ منهُ الاَّ فائدة ادبية او فكاهة نفسية ومتى حان الزمن لاستغناء الامم عن ملوكهم فانهم يزولون كما زال كثير مما كان في العصور السالفة